

## ما بين سيرة ابن هشام وإفحام اليهود للسموأل المغربي

هل اطلع السموأل المغربي على السيرة النبوية؟ وإلى أي مدى؟  
يجب قبل الشروع في الجواب على هذا السؤال، تحديد  
القضايا المشتركة التي طرحت في كل من "السيرة النبوية" لابن  
هشام وكتاب "إفحام اليهود" للسموأل المغربي.  
لقد طرح ابن هشام العديد من القضايا المهمة التي كان لها أثرها  
في تحديد العلاقات بين المسلمين واليهود، وكذلك فعل السموأل  
المغربي في كتابه.

وحتى يكون كلامنا محدداً أكثر، نطرح القضايا المشتركة  
التي عرضها الإثنان وهي:

**محبة الله لليهود وتفضيلهم على غيرهم من الأمم:**  
لا ينكر أحد أن الله في كتابه المقدس "التوراة" خاطب  
اليهود بما يدل على محبته لهم حيث تكررت مخاطبته لهم بكلمات  
مثل: شعبي المختار، " بنيس اتمس ليهوه الهيكم " "كي لعم  
قديش اتمه ليهوه الهيكم وبكج بخر يهوه لو لعم سغله  
مكل العلميس اشر عل فني האדמה" (1). (دברים. 1.2.1) "أنتم  
أولاد للرب الهكم. لأنك شعب مقدس للرب الهك وقد اختارك الرب  
لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه

الأرض " (التثنية، الإصحاح الرابع عشر، آية ١ و٢).

وقد جاءت آيات القرآن لتؤكد هذا التمييز للشعب اليهودي عند الله، مثل قوله تعالى: "يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين" (٢)، وقوله "ولقد أتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين" (٣).

لكننا رأينا كيف أن ابن هشام، وفي أكثر من موضع حاول أن يبطل هذا الحب، ويظهر ابتعاد الرب عن اليهود، وحتى الحضي على قتلهم، مثل قوله: إن الوحي جاء للرسول وحذره من أمر زعماء بني النضير عليه لقتله (٤)، ومثل قوله: أن الملاك جبريل نبهه إلى وجوب التوجه إلى بني قريظة بعد غزوة الخندق لقتالهم، وكيف أن جبريل أسرع قبل وصول الرسول ﷺ والمسلمين إلى بني قريظة ليزلزل بيوتهم عليهم (٥)، واستشهاده بالعديد من الآيات القرآنية ليؤكد ابتعاد الرب عنهم ورفضه لهم مثل قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء... إلخ" (٦).

وقد تناول السموءل المغربي مسألة محبة الله لليهود واجتهد أن يؤكد بطلانها، ورفض من البداية هذا القول وقال: "يزعمون أن الله تعالى يحبهم دون جميع الناس" (٧) وأخذ يبرهن على صحة موقفه بعدة أمثلة، كذكره للنبي أيوب، كإثبات على أن الله قد يختار أنبياء من غير اليهود (٨)، وذكره لما كان من شأن

التسعة أسباط والنصف الذين أغواهم يربعام بن نباط وصنع لهم الكباشين من الذهب وغضب الرب عليهم (٩) ، ثم استشهاده بنص من التوراة يؤكد مساواة الرب بين جميع المؤمنين وأنه يحب المؤمنين من جميع الطوائف ولا يحب الضالين أياً كانوا(١٠). وفي ذلك كله إثبات لعدم تفضيل الرب لليهود على غيرهم ، بل معاملتهم كغيرهم من الناس على حد سواء .

ويبدو من مراجعة ما ورد في السيرة النبوية وكتاب إفحام اليهود ، أن السموءل ، وإن انتبه إلى هذه القضية التي أثارها ابن هشام ، إلا أنه اهتم أن يعتمد على نصوص توراتية ليثبت موقفه ، ليكون كلامه أكثر إفحاماً وإقناعاً ، ولكننا نلاحظ عدم توسعه في هذه النقطة ، وقد يعود سبب ذلك إلى شعوره بالحرج وعدم الإقتناع بما يدعيه ، خاصة والآيات القرآنية العديدة تشير إلى حب الرب لهم وتفضيلهم على غيرهم ، وقد تكون المواقف المتكررة في التوراة والمؤكد على حب الرب وتفضيله رغم كل المواقف المغايرة ، هي المحرجة للسموئل وجعله لا يتوسع في ذلك .

لكن المهم أن السموئل لم يستشهد بأي موقف من التي ذكرها ابن هشام في السيرة ، والتي أبرز فيها موقف الرب الرفض لهم والداعي لحربهم والإنتقام منهم ، وقد يكون السموئل قد قصد عدم ذكر هذه المواقف لتكون حجته أقوى باستشهاده بنصوص توراتية .

ويجتهد السموءل ليثبت أن رفضَ الربِّ لليهود يظهر في العذاب الذي كان من نصيبهم ، وما قاسوه من ويلات بعد ذهاب دولتهم وتفرّق شملهم ، وهو يأتي بالعديد من الأقوال الدّالة على شقاء اليهود وتوسّلهم إلى الربِّ ليرأف بهم وينقذهم من ذلّهم(١١).

### حقيقة نبوة محمد ﷺ :

ذكرت في مكان سابق كيف اهتم ابن هشام أن يرسم لنا ذلك الموقف السلبي الذي اتخذته اليهود من الرسول ودعوته ، وكيف كانت مفاجأة محمد لذلك ، خاصة ، وكان قد اهتم أن يقيم علاقات جوار وتعاون حسنة بين المسلمين واليهود بعد هجرته إلى المدينة .

وأن الموقف المتصلب لليهود في رفضهم لنبوة محمد ﷺ كان غير منطقي ولا تدعمه الأسانيد ، وقد حاول ابن هشام إثبات ذلك من خلال الأمثلة العديدة والروايات التي تدل كلها على معرفة اليهود بصدق دعوة محمد وأنهم انتظروا ظهوره ، مثل إيراده لما رواه حسان بن ثابت : " والله إني لغلام يفعة ، ابن سبع سنين أو ثمان ، أعقل كل ما سمعت ، إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطفمة بيثرب : يا معشر يهود ، حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له : ويلك ، مالك ؟ قال : طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به " (١٢) . وذكره لقصة اليهودي جار بني الأشهل الذي أكد بعث

النبي من مكة وأنه سيظهر قريباً (١٣). وما ذكره عن ابن الهيبان ونصيحته لليهود قبل موته بأن نبياً سيظهر وعليهم أتباعه، (١٤) وروايته لقصة إسلام عبد الله بن سلام الذي قال: " لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوَكَّفُ فكانت مُسراً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله المدينة " (١٥). وغير ذلك من الروايات والقصص التي يوردها.

ولم يورد ابن هشام أي نصٍّ توراتي يُثبت به ما رواه من قصص حول معرفة اليهود بحقيقة نبوة محمد وبوجوب إيمانهم به مما أضعف موقفه، لكنه حاول تعويض هذا النقص بكثرة الروايات التي ذكرها حول اعتراف العديد منهم بأنه النبي الموعود، وبالكثير من الحوارات ما بين أحبار اليهود من جهة والرسول وبعض المسلمين من جهة ثانية، مثل قول الرسول لبني قينقاع بعد بدر: " يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أنني نبيٌّ مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم " (١٦) ومثل ذكر ابن هشام لدخول الرسول على اليهود في بيت المدارس ودعوته لهم للإيمان به (١٧).

واهتم ابن هشام أن يظهر موقف اليهود الراضين لنبوة محمد، وكأنه موقف متعنت لا يعتمد على أساس أو منطق، وأنه فقط من منطلق المكابرة والمعاندة وعدم الاعتراف بالحقيقة التي يدركونها. وأيضاً في هذه النقطة لم يعتمد على نص توراتي وإنما

اهتم بذكر العديد من القصص مثل ما نسب إلى صفية بنت حبي حيث قالت انها سمعت عمها أبا ياسر وهو يقول لأبيها حبي بن أخطب : "أهو هو؟ فأجاب أبوها : نعم والله . فقال عمها : أتعرفه وتُثبِّته؟ قال : نعم . قال : فما في نفسك منه؟ فأجاب حبي : عداوته والله ما بقيت " (١٨).

ومثل اهتمامه بذكر العديد من القصص والروايات ، اهتم كذلك بأن يأتي بالعديد من الآيات القرآنية لتؤكد معرفة اليهود بصدق نبوة محمد ولكنهم يكابرون ويرفضون الإعراف بالحقيقة ، مثل قوله تعالى : " فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين " (١٩) وغير ذلك كثير .

كذلك أظهر ابن هشام نقطة مهمة وهي أن رفض اليهود للإعراف بنبوة محمد لها سبب آخر وهو رفضهم للقبول بنبوة في غير اليهود ، كما ذكر في قول بعض أحبار اليهود لعبد الله بن سلام حين أسلم " ما تكون النبوة في العرب " (٢٠).

ومثل ابن هشام هكذا اهتم السموءل المغربي بهذه القضية ، ولكنه ومن منطلق كونه في السابق يهودياً عارفاً للدين اليهودي ، اعتمد في جدله وحواره حول هذه النقطة على نصوص توراتية .

والسموئل لا يختصر حديثه حول إثبات حقيقة النبي محمد وتأكيد النص التوراتي لذلك ، ولكنه يهتم أيضاً بتثبيت

حقيقة نبوة المسيح وأنه الذي أشارت إليه التوراة أيضاً (٢١).  
وقد ركز السموءل حديثه لإثبات نبوة محمد على الأسس  
نفسها التي يعتمدها اليهود في تصديقهم لنبوة موسى كما يقول  
مثل:

### التواتر (٢٢):

فالسموئل يظهر أن اليهود في تصديقهم لنبوة موسى يعتمدون  
على ما وصلهم من أخبار أسلافهم بالتواتر، عن معجزات موسى  
وإذا كان ذلك صحيحاً بالنسبة لموسى فإنه صحيح بالنسبة لمحمد  
أيضاً، لأنه يرى أن تواتر الشهادات بنبوة عيسى ومحمد، لأن  
شهادة المسلمين والنصارى بنبوة موسى ليست إلا بسبب أن  
كتابيهما شهدا له بذلك فتصديقهم بنبوة موسى فرع من تصديقهم  
بكتابيهما " على حد تعبير السموئل (٢٣).

### المعجزات:

قال السموئل " ان اليهود عرفوا نبوة موسى بما عمله من  
المعجزات، التي سمعوا بها ولم يروها، وهو يستغرب ذلك منهم  
ويقول إن معجزات الأنبياء يجب أن تظل باقية بعدهم ليراها كل  
جيل فيؤمن بها (٢٤). أما إذا وافق معهم بأن هذا ليس بالأمر  
الواجب لأنه إذا اشتهر نبي في عصر وصحت نبوته في ذلك العصر  
بالمعجزات التي ظهرت منه لأهل عصره ووصل خبره إلى أهل  
عصر آخر وجب عليهم تصديق نبوته واتباعه " (٢٤) كما يقول،

وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا صحيح أيضاً بالنسبة لعيسى  
ومحمد، وأن أفضلية محمد واضحة في أن معجزته، وهي  
القرآن، باقية شاهدة على صدق النبوة التي ليست بحاجة للإعتماد  
على الخبر (٢٥).

### شهادة الأمم:

يظهر السموءل أن اليهود يعتمدون في إثبات نبوة موسى  
وأفضليته على شهادة جميع الأمم بذلك (٢٦)، وهو يدحض هذا  
القول ويؤكد أن محمد يتفوق على موسى بذلك، والسبب أن هذه  
الأمم التي يستشهدون بها تكفروهم وعليه فلا يبق لهم إلا التواتر من  
طائفتهم وهي أقل الطوائف عدداً وعندها فسيكون تواترهم  
وشرعهم أضعف (٢٦). وسيكون تقدم محمد عليه بارزاً  
وواضحاً.

كذلك يذكر السموءل قول اليهود بأن الله علم موسى  
الأسماء وبهذا يفضل غيره مثل عيسى الذي تعلمها من حيطان بيت  
المقدس (٢٧).

أما الإعتماد الأساسي للسموءل في جدله وإثباته لصدق  
نبوة محمد فهو في اعتماده على نصوص توراتية يراها تشير إلى  
نبوة محمد وينكرها اليهود.

### ما جاء في التوراة يدل على نبوة محمد ﷺ:

ويأتي السموءل بالعديد من الآيات التي وردت في التوراة

وتشير إلى صدق نبوة محمد مثل (٢٨) " نביא אקים להם מקרב אחיהם כמוך אליו ישמעון" .

ويؤكد بأن المقصود بهذا الكلام هو محمد . ويتوسع في رفض ما يقوله اليهود بأن المقصود بهذا الكلام شموئيل النبي (٢٩) ، كذلك يأتي بالآية : وليשמع آل שמעתיד הנה ברכתי אותו והפריתי אותו והרביתי אותו במאד מאד (בראשית, יז 20) . " وأما إسماعيل فقد سمعتُ لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً " (التكوين، الإصحاح ١٧ ، آية ٢٠) . وأنه قصد (٣٠) بمآد مآد النبي محمد (٣١) لأن حساب حروفها كان مساوياً لحساب حروف محمد ، وأيضاً هنا يتوسع في إثبات صدق ما يدعي بأن لا مثيل لهذه الآية في التوراة . كذلك يستشهد بآية أخرى (٣٢) : ואמר אדני אתגלי וזהור יקרה משעיר אתחזי לנא אתגלי בגברתה מטורא דפארן ועמה רבון קדישין . ويؤكد أن المقصود بجبل فاران هو جبل مكة . وكذلك يذكر الآية (٣٣) : וישב במדבר פארן ותקח לו אמו אשה מארץ מצרים . (בראשית, כא 21) " وسكن في بريبة فاران . وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر " (التكوين، الإصحاح ٢١ ، آية ٢١) التي تؤكد صدق ما يدعيه بالنسبة لفاران وأنها مكة (٣٤) وهذا دليل على أن التوراة ذكرت محمداً وتصدق على نبوته . فقد ثبت " كما يقول السموئل " في التوراة أن جبل فاران مسكن لآل إسماعيل ، وإذا كانت التوراة قد

أشارت إلى نبوة ما، تنزل على جبل فاران، لزم أن تلك النبوة على آل اسماعيل لأنهم سكان فاران، وأن المقصود بالنبوة من ولد إسماعيل هو محمد، وأنه بعث من مكة التي كان فيها مقام إسماعيل (٣٥).

### النسخ والجدل الحاد:

من القضايا المهمة التي ذكرها ابن هشام، وكانت موضع صدام وجدل بين المسلمين واليهود أيام الرسول (صلعم)، ما كان يتهم به اليهود محمداً من تغيير وتبديل أمور كان قد صرح بها أو فرضها على المسلمين. مثل قضية تغيير القبلة من القدس إلى مكة، وقضية صوم يوم عاشوراء، وتقديس يوم الجمعة وما شابه، فقد كان اليهود يسخرون من الرسول ويشككون في صدق نبوته ويقولون إن محمداً يأمر أصحابه اليوم بأمر وينهي عنه غداً (٣٦). وقد نزلت الآيات القرآنية العديدة التي تفسر سبب هذا التغيير، وأنه أمر رباني مثل قوله تعالى: " ما نسخ من آية أو نسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير (٣٧). والنسخ كما يقول ابن منظور في لسان العرب يعني: إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه، وتبديل الشيء من الشيء وهو غيره (٣٨). ويرى الغزالي أن النسخ يعني - رفعا للأمر، أي لحكم الأمر ومدلوله، وأن حقيقة النسخ الرفع والتبديل (٣٩). ويأتي الأشعري بعدة آراء حول مفهوم كلمة النسخ فيقول ان بعضهم

يقول أن المنسوخ هو ما رفعت تلاوة تنزيله وترك العمل بحكم تأويله فلا يترك لتنزيله ذكر يُتلى في القرآن ولا لتأويله أنه يعمل به في الأحكام. وقال آخرون: إن النسخ لا يقع في القرآن، وتلي وحكم بتأويله النبي، ولكن النسخ ما أنزل الله به على هذه الأمة في حكمة التفسير إلخ (٤٠). كذلك يأتي ابن كثير في تفسيره للقرآن بالعديد من الآراء حول مدلول كلمة النسخ (٤١).

وقد شغلت قضية النسخ معظم العلماء المسلمين لما أثير حولها من ضجة، خاصة فيما يتعلق ببعض الأحكام التي فرضت على المسلمين ثم غيرت أو بعض الآيات التي نسخت.

وقد ورد في القرآن العديد من الآيات التي تتناول هذه القضية وتحلّ الغامض منها، مثل قوله تعالى: "وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون" (٤٢) وقوله "سنقرئك فلا تنسى، إلا ما شاء الله أنه يعلم الجهر وما يخفى" (٤٣) وقوله "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان، ثم يحكم الله آياته، والله عليكم حكيم" (٤٤).